النـاسُ هم بالـناس في الدنيا فذا ... عالٍ وهذا دونَه يرجوهُ .
والكلّ ُ عائلةُ الإله فبعضُهم ... يدعونَ خيرَهُمُ كما يدعوهُ .
وهمُ طباعٌ يقصدون كرامَها ... من بينهم ومعادنٌ ووجوهُ .
وإليك هذا القولُ يسري فالهُ ... وعليك معنى سرّ ِهِ أجْلوهُ .
يُقَبّ ِلُ الأرضَ ويُنهي أن مطالعاته وتضرّ ُعاته ووسائله ورسائله وقصائده ومذاكراته تكرّ َرتْ إلى بيت يدي المخدوم أدام ا أيّ َامه وأبقى رماحاً للدولة أقلامه وسيوفاً للهيجاء كلامه . وهل سيتسقي الظمآن إ ِلاّ َ الغمام أو يستصرخ العاني إ ِلاّ َ بالسّ َراة الكرام أو تقف الآمالُ إ ِلاّ َ على الوجوه الصّ ِباح أو يجلو ظلمة الليل البهيم إ ِلاّ َ القمر إذا لاح أو الصباح إذا طلع بنوره الوضّ َاح أو يلوذ العبدُ إ ِلاّ َ بسيّ ِده أو يعوذ المنقطع إ ِلاّ َ بمن سَ َبَ ُ الاتصال في يده ؟ والمملوك ظامْ وأفق سيّ ِدي المخدوم غمامٌ عامٍ وعان وكرمه قد ملأ الدّ ُنيا بالإنعام . وله أملٌ ووجهه قد غطّ َى على الشمس بالإشراق وفي ليلٍ داج وبين عينيه قمرٌ لا يصل إليه مُحاق ومن بِشْره صبحٌ يدلّ ُ في الآفاق ضالّ َةَ الرفاق وعبدٌ وأنت السيد الكامل ومنقطِع وأنت بمشيئة ا إلى المأمن حامل .
ولا تسأل عن الإفلاس غيري ... فآخر ما يُباع هي الدفاترْ .
وما لي دفترٌ فأبيعَ منه ... وقد خَلَتِ الدفاترُ والمحابرْ .
وما ثَقّ َلْتُ إ ِلاّ َ بعد جهدٍ ... فكن لي مُسعفاً يوماً وعاذرْ .
وحالُ الجسم منّ ِي مثلُ حَظّ ِي ... كطِرسي الكلّ ُ أشباهٌ نظائرْ .
ولا أشكو لغير ا ما بي ... وكم في العالمين لنا بصائر .
ولكن أستقيل وأنت ناءٍ ... إليك كما أكون وأنت حاضر .
فأدركْني إذن لا زلتَ تسخو ... بجاهٍ عند رَيْبِ الدهر ناصرْ .
أكابرنا بقيتم في مزيدٍ ... من العلياء يكتنف الأصاغرْ .
ولا زالت تروح لنا وتغدو ... بشائرُ منك تتلوها بشائرْ .
وإن كسر الزمانُ لنا قلوباً ... لقيك منك بالإحسان جابرْ .

ونقلتُ من خطّ ِه أيضاً نسخة كتابٍ كتبه إليه أيضاً وهو : يُقَبّ ِلُ الأرض ويُنهي أنه قد انتهى الأمر إلى ما علمه مولانا من توجّ ُه أهل المملوك وولده إلى دمشق وهم الآن بها يسألون الناس القوت والمملوكُ بصفد في مثل حالهم والأمور كلّها بيد ا عزّ َ وجلّ . وقد كان المملوك يعهد له حظّ ًا من خاطر مولانا ويرجو من لطف ا بقاء بعضه إن لم يكن كلّه .

وحاشا نفسَه الشريفة الطاهرة أن يكون مبلغ رضاه بين الناس أن يكون هذا نصيب المملوك من جاه مولانا . وهذا حاله في أيّـَام عزّ ِه وإقبال سعادته التي كان المملوك يبشّ ِره بها ويلمح له بوادرها ويتوسّ َم مقدّ ِماتها وكم كان مولانا يُسلف المملوكَ وعودَ خيره ومواثيق وفائه وعهود مواساته فلا يكن ذلّـنا في عِزّ ِكَ الغَرضا .

وإنْ حننتَ للحمى وروضه ... فبالغضا ماءٌ وروضاتٌ أُخَرْ .

هل مِصْرُ إِلاّ َ منزلٌ مفارَقٌ ... ووطنٌ في غيره يُقضَى الوَطَرْ .

وا ِ إنّ َ المملوك يسرّ ُه أن يكون مولانا في خير وما يُنسبُ إليه إِلاّ َ كلّ حَسَنٍ جميل فلا يتوقّ َعُ من جهته إِلاّ َ الخير ولا يعرف طباعه تقبل إِلاّ َ الخير والإحسان ولا يُصغي إِلاّ َ لمن يقول الخير ويُشير به .

ولو تُرك القطا ليلاً لناما .

ولمّ َا زاد ما ألقى ... وقال الدهرُ أن أشقى .

وعزّ َ الحظّ ُ في الدّ ُنيا ... من الإخوان أن يبقى .

وكاد الروح من ظمإٍ ... إلى الحلقوم ِ أن يرقى .

تجلّ َى لي سحابٌ مُ ... دّ َ حتّ َى جَلّ َلَ الأُفقا .

فلمّ َا أن دَنا منّ ِي ... تعدّ َاني وما أسْقى